تفسير سورة مريم

الجزء الأول

سورة مريم، السورة التاسعة عشر في القرآن، وهي إحدى السور المكيّة، ماعدا الآيات 58 و71 فهي مدنية. بلغ عدد آياتها 98 آية، ويوجد بها سجدة في الآية رقم 58، وتقع في الجزء السادس عشر. ونزلت بعد سورة فاطر.

أسماء السورة:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (مَريمَ) لاشتِمالِها على قِصَّتِها مُفصَّلةً. ابن عاشور

سُمّيت باسم مريم تخليداً لها، حيث إنّها ولدت عيسى عليه السلام بدون أب، كما أنّها السيدة الوحيدة التي ذُكر اسمها في القران الكريم، وذلك لعظم مكانتها في الإسلام، كما ورد اسمها في كثير من الأحاديث ومنها: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (خَيرُ نِساءِ العالَمينَ أربَعٌ: مَريمُ بنتُ عِمرانَ، وخَديجةُ بِنتُ خُوَيْلِدٍ، وفاطِمةُ بِنتُ مُحمدٍ، وآسِيةُ امْرأةُ فِرعَونَ).

ومما يدلُّ على فضل السورة:

1- عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ الله عنه، قال: (سورةُ «بني إسرائيلَ»، و«الكَهفِ»، و«مَريمَ»، و«طه»، و«الأنبياءِ»: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ (السُّوَرُ الَّتي أُنزِلتْ أوَّلًا بمكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير)، وهُنَّ مِن تِلادي (مما حُفِظ قديمًا) (فتح الباري).

2- عن أبي هُريرةَ رضِي الله عنه، قال: (قدمتُ المدينةَ مهاجرًا، فصليتُ الصبحَ وراءَ سِباعٍ (سِباعُ بنُ عُرْفُطةَ) فقرَأ في السجدةِ الأُولَى سورةَ «مريمَ»، وفي الأُخرَى وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ).

فضائل السورة وخصائصها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه: كما في أثرِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ الله عنه المتقدِّمِ قريبًا.

بيان المكي والمدني:

سورةُ مَريمَ مَكِّيَّةٌ

قال ابنُ عطية: (هذه السورةُ مكيَّةٌ بإجماعٍ إلَّا السَّجدةَ منها، فقالت فرقةٌ: هي مكيَّةٌ، وقالت فرقةٌ: هي مدنيةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (3/4).

مقاصد السورة:

تحقيقُ العُبوديَّةِ، وتعظيمُ شَأنِ الرُّبوبيَّة، وتقريرُ مَبدأِ البَعثِ. ((تفسير الرازي)) (541/21)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (230/15).

من أهمّ موضوعات هذه السُّورةِ:

1- ذِكرُ قِصَّة زكريَّا عليه السلامُ.

2- ذكرُ قِصَّةِ مَريمَ ومولدِ عيسى عليهما السلامُ.

3- ذِكرُ طرفٍ من قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع أبيه.

4- الإشارةُ إلى عددٍ مِن النبيينَ، ومنهم: موسى، وهارونُ، وإسماعيلُ، وإدريسُ عليهم السَّلامُ.

5- بيانُ جزاءِ المتَّقينَ وعقابِ الكافِرينَ، وفَتحُ بابِ التَّوبةِ للعاصينَ.

6- حكايةُ بَعضِ شُبهاتِ المشركينَ المتعلقةِ بالقرآنِ والبعثِ والوحدانيةِ مع الردِّ عليها، وإقامةِ الأدلةِ على وحدانيةِ الله، ونفيِ الشريكِ والولدِ، وإقامةِ الأدلةِ على أنَّ البعثَ حقٌّ.

7- بيانُ بعضِ مَشاهِدِ القيامةِ.

8- خُتِمَت السورةُ بما بَدَأت به مِن بَيانِ مَحبَّةِ اللهِ تعالى وتكريمِه لأوليائِه، وبيانِ الحِكمةِ مِن نُزولِ القُرآنِ، وهي: البِشارةُ والنِّذارةُ. الدرر السنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى -في هذه السورة الكريمة سورة مريم:

﴿كهيعص﴾ ﴿1﴾

(كهيعص) هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها. موسوعة

فائدة افتتاح بعض السّور بالحروف المقطّعة:

❶ إثارة انتباه ❷ اقامة الحجة على من نزل عليهم القرآن ❸ التحدي.

أرجح الأقوال ما قاله الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: أنها إشارة إلى إعجاز القرآن العظيم بأنه لم يأت بجديد في الحروف التي جاء بها بل هو جاء بالحروف التي تركبون منها كلامكم ومع ذلك أعجزكم؛ ولهذا تجد السور المبدوءة بهذه الحروف الهجائية يأتي من بعدها ذكر القرآن أو شيء لا يكون إلا بوحي.

﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ ﴿2﴾

(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) أي: هذا الذي نَتلوه في هذه الآياتِ، قِصَّةُ رَحمةِ رَبِّك -يا مُحَمَّدُ- عَبدَه زكريَّا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. موسوعة التفسير

قال تعالى: (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ) [الأنعام: 85].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان زَكريَّاءُ نجَّارًا)). رواه مسلم

قال السعدي: سنقُصُّه عليك، ونفصِّلُه تَفصيلًا يُعرَفُ به حالةُ نبيِّه زكريَّا، وآثارُه الصَّالحةُ، ومَناقِبُه الجميلةُ؛ فإنَّ في قَصِّها عِبرةً للمُعتبرينَ، وأُسوةً للمُقتَدينَ، ولأنَّ في تفصيلِ رحمتِه لأوليائِه، وبأيِّ سببٍ حَصَلتْ لهم: ما يدعو إلى محبَّةِ الله تعالى، والإكثارِ مِن ذِكرِه، ومَعرفتِه، والسَّببِ الموصلِ إليه.

التذكر ليس ضد النسيان دائماً، فالله سبحانه وتعالى منزه عن النقائص، والنسيان نقيصة، " لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى " " وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا " " أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ "، ذكر الله عز وجل ثناءه على عبده بذكره الذي يرفع مقام صاحبه في عليين " فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ " " فَإن ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفسي، وإنْ ذَكَرَنِي فِي ملإٍ، ذكَرتُهُ فِي ملإٍ خَيْرٍ منْهُمْ" متَّفقٌ عليه.

قال ابن عاشور: فافتُتِحَتْ قِصَّةُ مريمَ وعيسى بما يتَّصِلُ بها من شُؤونِ آلِ بيتِ مريمَ وكافِلِها؛ لأنَّ في تلك الأحوالِ كلِّها تذكيرًا برحمةِ اللهِ تعالى وكرامتِه لأوليائِه.

وقال الجزي: (عَبْدَهُ) وصَفَه بالعبوديَّةِ؛ تَشريفًا له، وإعلامًا له بتَخصيصِه وتَقريبِه.

فإذا أختار الانسان الذل والخضوع والحب لله، ولج باب العبودية ووضع قدمه في أول درجات سلم الشرف، وبلوغ منازل العزة، وشارك صفوة الخلق عليهم صلوات الله والناس أجمعين بأوصافهم التي شرفهم الله بها، فقد وصف سبحانه وتعالى جميع الأنبياء أنهم عباد له، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ (ص/17)، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ (ص/41)، ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (ص/45)، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ (البقرة/23)، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ...﴾ (الفرقان/1)، كلما كان العبد في غاية الذل والمحبة والتعظيم لله،فاعلاً للأمر تاركاً للنهي، كان مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ ﴿3﴾

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا) أي: إذ دعا زكريَّا رَبَّه، وسأَله بنداءٍ خَفيٍّ عن النَّاسِ. موسوعة التفسير

قَولُ الله تعالى: إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا فيه سؤالٌ: أنَّ مِن شَرطِ النِّداءِ الجَهرَ، فكيف الجَمعُ بينَ كَونِه (نداءً) و(خَفيًّا)؟

أنَّ زكريَّا -عليه السَّلامُ- أتَى بأقصى ما قدَرَ عليه مِن رَفعِ الصَّوتِ، إلَّا أنَّ الصَّوتَ كان ضَعيفًا لنهايةِ الضَّعفِ؛ بسببِ الكِبَرِ، فكان نداءً نظرًا إلى قَصدِه، وخفيًّا نظرًا إلى الواقِعِ. الدرر السنية

قال ابن عاشور: أنَّه لا مُنافاةَ بينَ كَونِه (نداءً) وكونِه (خفيًّا)؛ لأنَّه نداءُ مَن يَسمَعُ الخَفاءَ.

(خفيًّا): النداء الخافت: فالله تعالى يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

وأنَّ أعرابيًا قالَ: يا رسولَ اللَّهِ أقريبٌ ربُّنا فنُناجيَهُ أَمْ بعيدٌ فنُنادِيَهُ؟ فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ" هذا "إسناده ضعيف"، وهناك الكثير من الآيات التي تثبت أن السِّر عنْدَهُ سبحانه

عَلَانِيةٌ؛ والإِخْفَاءُ عنْدَهُ كَالْمُجَاهَرةِ؛ ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ...﴾ [الرَّعْد:10]، وعِلمه محيط بمكنونات ضمائر البشر، وخفايا صدور العباد، بل علمه محيط بجميع خلقه، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:7] الكلام الخفي {وَأَخْفَى} من السر، الذي في القلب، ولم ينطق به، علمه تعالى محيط بجميع الأشياء، دقيقها، وجليها خفيها، وظاهرها.

فيه استِحبابُ الإسرارِ بالدُّعاءِ قال السيوطي في الإكليل، وفي إخفاءِ الدُّعاءِ والإسرارِ به فوائِدُ عديدةٌ:

أحدُها: أنَّه أعظَمُ إيمانًا؛ لأنَّ صاحِبَه يعلَمُ أنَّ اللهَ يَسمَعُ الدُّعاءَ الخَفيَّ.

ثانيها: أنَّه أعظَمُ في الأدبِ والتعظيمِ؛ لأنَّ الملوكَ لا تُرفَعُ الأصواتُ عِندَهم، ومَن رفَعَ صَوتَه لديهم مَقَتوه، ولله المَثَلُ الأعلى.

ثالثها: أنَّه أبلَغُ في التضَرُّعِ والخُشوعِ الذي هو رُوحُ الدُّعاءِ ولُبُّه ومَقصودُه.

رابعُها: أنَّه أبلَغُ في الإخلاصِ.

خامسها: أنَّه أبلَغُ في جَمعيَّةِ القَلبِ على الذِّلَّةِ في الدُّعاءِ؛ فإنَّ رَفعَ الصَّوتِ يُفَرِّقُه، فكلَّما خَفَض صَوتَه كان أبلغَ في تجريدِ هِمَّتِه وقَصدِه للمَدعُوِّ سُبحانَه.

سادسها: وهو مِن النُّكَتِ البَديعةِ جِدًّا: أنَّه دالٌّ على قُربِ صاحِبِه للقَريبِ، لا مسألةَ نداءِ البعيدِ للبَعيدِ؛ ولهذا أثنى اللهُ على عَبدِه زكريَّا بقَولِه عزَّ وجَلَّ: (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا) [مريم: 3]، فلمَّا استحضَرَ القَلبُ قُربَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأنَّه أقرَبُ إليه مِن كُلِّ قَريبٍ؛ أخفى دُعاءَه ما أمكَنَه.

سابعها: أنَّه أدعى إلى دوامِ الطَّلَبِ والسُّؤالِ؛ فإنَّ اللِّسانَ لا يَمَلُّ، والجوارِحَ لا تتعَبُ، بخلافِ ما إذا رَفَع صَوتَه، فإنَّه قد يَمَلُّ اللِّسانُ وتَضعُفُ قُواه.

ثامنها: أنَّ أعظَمَ النِّعمةِ الإقبالُ والتعَبُّدُ، ولكُلِّ نِعمةٍ حاسِدٌ على قَدْرِها، دَقَّت أو جَلَّت، ولا نِعمةَ أعظَمُ مِن هذه النِّعمةِ؛ فإنَّ أنفُسَ الحاسِدينَ مُتعَلِّقةٌ بها، وليس للمَحسودِ أسلَمُ مِن إخفاءِ نِعمتِه عن الحاسِدِ.

تاسعها: أنَّ الدُّعاءَ هو ذِكرٌ للمَدعُوِّ سُبحانَه وتعالى، متضَمِّنٌ للطَّلَبِ والثَّناءِ عليه بأوصافِه وأسمائِه، فهو ذِكرٌ وزيادةٌ، كما أنَّ الذِّكرَ سُمِّيَ دُعاءً لتضَمُّنِه للطَّلَبِ.

⇦والمقصودُ: أنَّ كُلَّ واحدٍ من الدُّعاءِ والذِّكرِ يتضَمَّنُ الآخَرَ ويدخُلُ فيه، وقد قال تعالى: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً) [الأعراف: 205] فأمَرَ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَذكُرَه في نَفسِه.

((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (15/15- 18)).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ﴿4﴾

(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) أي: قال زكريَّا: يا رَبِّ، إنِّي رقَّ عَظمي، وضعُفَت قُوَّةُ بَدَني. موسوعة التفسير

❁قال ابن عاشور: قوله (قَالَ رَبِّ) بحَذفِ أداةِ النِّداءِ؛ للدَّلالةِ على غايةِ القُربِ.

❁وقال في قوله (إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) مُستعملانِ في لازمِ الإخبارِ، وهو الاسترحامُ لحالِه؛ لأنَّ المخْبَرَ عالمٌ بما تَضمَّنَه الخبرانِ.

❍انكسارك لله هو عزك الحقيقي، وافتقارك إليه هو الغنى وانطراحك بين يديه هو القوة. مها العنزي

❍ليس أجمل من أن تحتفظ بهمومك لنفسك ولا تبوح بها إلا لخالقك...فلا أحد يطبب الجروح مثل الله! تأملات قرآنية

❍عبر عن شكواك اسكب فيها المسكنة والضعف والانكسار اشرح بأسى ألمك وحزنك قل كل شئ لربك. عبد الله بلقاسم

(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) أي: وانتشَرَ بَياضُ الشَّيبِ في رأسي. موسوعة التفسير

قال السعدي: لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده، ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على التبري من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) أي: ولم أكُنْ حين أدعوك مِن قَبلُ -يا رَبِّ- خائبًا مَحرومًا مَردودَ الدَّعوةِ، بل عوَّدْتَني إجابةَ دَعوتي، وقَضاءَ حاجَتي. موسوعة التفسير

قال السعدي: لم تكن يا رب تردني خائبا ولا محروما من الإجابة، بل لم تزل بي حفيا ولدعائي مجيبا، ولم تزل ألطافك تتوالى علي، وإحسانك واصلا إلي، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقا، أن يتمم إحسانه لاحقا.

❍إذا ابطأت حاجة تطلبها من الله فتودد إليه واعترف بألطافه السابقة واطلب منه ان لا يردك خائبا هذه المرة. مها العنزي

❍قال بعض السلف: إنه دعا الله أربعين عاما في حاجة فلم تحصل له إلا بعد أربعين عاما، فربك أعلم وأحكم قد يؤجلها لحكمة بالغة.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ﴿5﴾

(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي) أي: وإنِّي -يا ربِّ- خِفتُ أن يُضَيِّعَ أقاربي مِن بَعدِ موتي الدِّينَ والعِلمَ، ولا يَقوموا بحَقِّهما. موسوعة

❁الْمَوَالِيَ: أي: الأقاربَ والعَصَبةَ مِن الوَرَثةِ الذين يَلونَه في النَّسَبِ. الدرر السنية

قال السعدي: أي: وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا، أنه لم ير فيهم أحدا فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما

قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدا، يقوم بالدين من بعده، واشتكى أن امرأته عاقر، أي ليست تلد أصلا، وأنه قد بلغ من الكبر عتيا، أي: عمرا يندر معه وجود الشهوة والولد.. الدرر السنية

قال القرطبي: (قال العلماءُ: دعاءُ زكريا عليه السلام في الولَدِ إنَّما كان لإظهارِ دينِه، وإحياءِ نُبوَّتِه، ومُضاعفةً لأجرِه، لا للدُّنيا).

(وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) أي: وكانت امرأتي عَقيمًا لا تَلِدُ أصلًا. موسوعة التفسير

(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) أي: فارْزُقْني -يا رَبِّ- مِن عِندِك ولدًا يقومُ بالدِّينِ مِن بعدي حَقَّ القيامِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) [آل عمران: 38].

وقال سُبحانَه: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) [الأنبياء: 89].

قال أبو السعود: الفاءُ لترتيبِ ما بعدها على ما قبْلَها؛ فإنَّ ما ذكَرَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من كِبَرِ السِّنِّ، وضعْفِ القُوى، وعَقْرِ المرأةِ: مُوجِبٌ لانقطاعِ رجائِه عليه السَّلامُ عن حُصولِ الولَدِ بتوسُّطِ الأسبابِ العاديَّةِ، واستيهابِه على الوجْهِ الخارقِ للعادةِ، ولا يقدَحُ في ذلك أنْ يكونَ هناك داعٍ آخرُ إلى الإقبالِ على الدُّعاءِ المذكورِ من مُشاهدتِه عليه السَّلامُ للخوارقِ الظَّاهرةِ في حَقِّ مريمَ، كما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ) [آل عمران: 38] الآيةَ.

كما قال تعالى (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [آل عمران: 37].

قال الطبري: أَنَّ زَكَرِيَّا كَانَ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَاب وَجَدَ عِنْدهَا رِزْقًا مِنْ اللَّه لِغِذَائِهَا. فَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ الرِّزْق الَّذِي كَانَ يَجِدهُ زَكَرِيَّا عِنْدهَا فَاكِهَة الشِّتَاء فِي الصَّيْف، وَفَاكِهَة الصَّيْف فِي الشِّتَاء. (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) [آل عمران: 38-39]

⇦ يأتي الدعاء في آية، فتأتي الاستجابة في الآية التالية لها، حرف الفاء يفيد التعقيب والتسريع، دلالةً على سرعة الإجابة، لا تجعلي الدعاء آخر بديل لك، ولكن اجعليه أول ما تفعلي عند تعرضك لأي نوع من الابتلاء، يجب أن ندعوا الله في الرخاء والشدة، ولا نجعل الله آخر من نلجأ إليه، بل يكون المعين الأول والأخير لنا... لأنه هو وحده من يعلم شعورنا وهو ألطف بنا من أمهاتنا.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ﴿6﴾

(يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ) أي: يَرِثُ عِلمي ونبُوَّتِي، ويَرِثُ مِن أجدادِه آلِ يَعقوبَ العِلمَ والنبُوَّةَ، فيكونُ نبيًّا، داعيًا إلى الله، قائمًا بدِينِه. موسوعة التفسير

والذي يؤكد أن المقصود هنا ميراث الدِّينَ والعِلمَ عدة وجوه ذكرها ابن كثير:

قال ابنُ كثير: (... سألَ اللَّهَ ولدًا، يكونُ نبيًّا مِن بعدِه؛ ليسوسَهم بنُبُوَّتِه وما يُوحَى إليه، فأُجِيب في ذلك، لا أنَّه خَشِي مِنْ وراثَتِهم له مالَه؛ فإنَّ النَّبِيَّ أعظمُ منزلةً وأجلُّ قدرًا مِنْ أنْ يُشْفِقَ على مالِه إلى ما هذا حدُّه أنْ يأنفَ مِنْ وراثةِ عَصباتِه له، ويسألَ أنْ يكونَ له وَلَدٌ، فيحوزَ ميراثَه دونَهم. هذا وجهٌ.

الثَّاني: أنَّه لم يُذْكَرْ أنَّه كان ذا مالٍ، بل كان نَجَّارًا يأكلُ مِنْ كسبِ يديه، ومِثْلُ هذا لا يجمعُ مالًا، ولا سِيَّما الأنبياءُ، عليهم السَّلامُ؛ فإنَّهم كانوا أزهدَ شيءٍ في الدُّنيا.

الثَّالثُ: أنَّه قد ثَبَت في الصَّحيحينِ مِن غيرِ وجهٍ: أَنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قالَ: «لا نُورَثُ، ما تركْنا فهو صدقةٌ»، وفي روايةٍ عندَ التِّرمذيِّ بإسنادٍ صحيحٍ: «نحنُ معشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ»، وعلى هذا فتعَيَّن حملُ قولِه: فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي على ميراثِ النُّبُوَّةِ؛ ولهذا قال: يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ، كما قال تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) [النَّمل: 16] أي: في النُّبُوَّةِ؛ إذ لو كان في المالِ لَمَا خصَّه مِن بينِ إخوتِه بذلك، ولَمَا كان في الإخبارِ بذلك كبيرُ فائدةٍ؛ إذ مِن المعلومِ المستقِرِّ في جميعِ الشَّرائعِ والمِلَلِ أنَّ الولدَ يَرِثُ أباه، فلولا أنَّها وِراثَةٌ خاصَّةٌ لَمَا أخبَر بها). ((تفسير ابن كثير)) (212/5).

(وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) أي: واجعَلْ وَلَدي -يا رَبِّ- مَرْضيًّا عندك وعندَ عِبادِك، صالحًا في دينِه وخُلُقِه وأعمالِه. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: جُملةُ: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ) مِنِّي مُبيِّنةٌ لجُملةِ (نَادَى رَبَّهُ)، وهي وما بعدَها تَمهيدٌ للمقصودِ من الدُّعاءِ، وهو قولُه: (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا)؛ وإنَّما كان ذلك تَمهيدًا لِما يتضمَّنُه من اضطرارِه لسُؤالِ الولدِ، واللهُ يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ؛ فليس سُؤالُه الولدَ سُؤالَ توسُّعٍ لمجرَّدِ تَمتُّعٍ أو فخْرٍ، ووصَفَ من حالِه ما تشتَدُّ معه الحاجةُ إلى الولدِ حالًا ومآلًا؛ فكان وهْنُ العظْمِ وعُمومُ الشَّيبِ حالًا مُقتضيًا للاستعانةِ بالولدِ، مع ما يَقْتضيه مِن اقترابِ إبَّانِ الموتِ عادةً؛ فذلك مقصودٌ لنفْسِه، ووسيلةٌ لغيرِه وهو الميراثُ بعدَ الموتِ.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ﴿7﴾

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى) أي: فاستجاب اللهُ له ونُودِيَ: يا زكريَّا، إنا نُبَشِّرُك بإجابةِ دُعائِك، فستُوهَبُ غُلامًا اسمُه يحيى. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: (في هذه الآيةِ الكريمةِ حذفٌ دَلَّ المقامُ عليه، وتقديرُه: فأجابَ اللهُ دعاءَه فنُودِي: يا زَكَرِيَّا ... الآيةَ). ((أضواء البيان)) (367/3).

كما قال تعالى: (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) [آل عمران: 39].

وقال سُبحانَه: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) [الأنبياء: 90].

(لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) أي: لم نُسَمِّ أحدًا قبلَ يحيى بهذا الاسمِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: سمَّاه اللهُ له «يحيى» وكان اسمًا موافِقًا لِمُسماه: يحيا حياةً حِسِّيةً، فتَتِمُّ به المِنَّةُ، ويحيا حياةً مَعنويَّةً، وهي حياةُ القلبِ، والرُّوحِ بالوَحيِ، والعِلمِ، والدِّينِ.

قال الشوكاني: فيه فضيلَةٌ ليحيى مِن جهتينِ: الأولَى أَنَّ اللَّهَ سبحانَه هو الَّذي تولَّى تَسْمِيَتَه به، ولم يَكِلْها إلى الأبوينِ. والجهةُ الثَّانيةُ: أنَّ تسميتَه باسمٍ لم يُوضَعْ لغيرِه يُفيدُ تشريفَه وتعظيمَه.

قال ابن القيم: يُستحبُّ للمُسلِمِ أنْ يُبادِرَ إلى مَسَرَّةِ أخيه، وإعلامِه بما يُفرِحُه، ومن ذلك بِشارةُ مَن وُلِدَ له وَلَدٌ.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ﴿8﴾

(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي) أي: قال زكريَّا مُتعَجِّبًا: يا ربِّ كيف يُولَدُ لي غُلامٌ، وزوجتي عقيمٌ لا تَحمِلُ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور:(أنَّى) استفهامٌ مُستعملٌ في التَّعجُّبِ، والتَّعجُّبُ مُكنًّى به عن الشُّكرِ، فهو اعترافٌ بأنَّها عطيَّةٌ عزيزةٌ غيرُ مألوفةٍ؛ لأنَّه لا يجوزُ أنْ يسألَ اللهَ أنْ يهَبَ له ولدًا، ثمَّ يتعجَّبَ من استجابةِ اللهِ له.

(وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) وقد بلغتُ غايةً في كِبَرِ السنِّ حتى نَحَلَت عظامي ويَبِسَت. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ) [آل عمران: 40].

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ ﴿9﴾

(قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) أي: قال لزكريَّا: هكذا الأمرُ كما ذكرتَ مِن أنَّ امرأتَك عاقِرٌ، وأنَّك بلغْتَ من الكِبَرِ عِتيًّا، فمجيءُ الولَدِ منكما والحالةُ هذه أمرٌ مُستغرَبٌ في العادةِ، ولكِنْ قال ربُّك: هذا الأمرُ يسيرٌ وسَهلٌ عليَّ. موسوعة التفسير

قال القرطبي: القائِلَ هو مَلَكٌ مِن الملائكةِ. وقاله أكثر المفسرين

قال الرازي: أنَّ القائلَ هو الله تعالى.

كما قال تعالى: (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) [آل عمران: 40].

(وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) أي: وقد أوجَدْتُك -يا زكريَّا- مِن قَبلِ يحيى، ولم تكنْ شيئًا موجودًا؛ فكذلك أنا قادِرٌ على إيجاد ولدٍ لك مِن زوجتِك العاقِرِ مع كِبَرِ سِنِّك، فلا تعجَبْ؛ فكما لا عجَبَ مِن خَلقِ الولَدِ في الأحوالِ المألوفةِ، كذلك لا عجَبَ مِن خَلقِ الولَدِ في الأحوالِ النَّادرةِ؛ فكلاهما إيجادٌ بعدَ عَدَمٍ. موسوعة التفسير

قال تعالى: (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) [مريم: 66 - 67]، فذُكِّرَ الإنسانُ بما يعلَمُه مِن أنَّه خلَقَه ولم يَكُ شيئًا؛ ليَستَدِلَّ بذلك على قُدرتِه على مِثلِ ذلك، وعلى ما هو أهوَنُ منه. ابن تيمية

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ ﴿10﴾

(قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً) أي: قال زكريَّا: يا رَبِّ، اجعَلْ لي علامةً أستَدِلُّ بها على حَملِ زوجتي؛ ليطمَئِنَّ قلبي. موسوعة التفسير

قال القصاب: دليلٌ على تثبيتِ الخبرِ المرويّ وصحته: ((ليس الخَبَرُ كَالمعاينة))؛ وذلك أنَّ زكريا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَشْكُ إلى ربِّه وَهَنَ عَظْمِه، واشتعالَ الشيبِ في رأسه إلَّا وهو مُوقنٌ بإجابةِ دعوتِه؛ ثم بَشَّرَه اللهُ ببشارةِ الغلامِ؛ فقال ما قال -وهو عالمٌ بأنَّ ربَّه يَقْدِرُ عليه- فلا وجهَ له -واللهُ أعلمُ- غيرُ ما قُلْنا مِن أنَّ المعاينةَ في الأشياءِ أبلغُ مِن الخَبرِ، وإنْ كان الخَبرُ بالغًا عندَ المؤمنين. ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (224/2).

(قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) أي: قال اللهُ لزكريَّا: العَلامةُ التي جعَلْناها لك دليلًا على حَملِ زَوجتِك: ألَّا تَقدِرَ على الكَلامِ مع النَّاسِ ثَلاثَ ليالٍ، وأنت صحيحٌ ليس بك مَرَضٌ يمنَعُك مِن الكلامِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (هذا مِن الآياتِ العَجيبةِ؛ فإنَّ مَنْعَه من الكلامِ مُدَّةَ ثلاثةِ أيَّامٍ، وعجزَه عنه -مِن غيرِ خَرسٍ ولا آفةٍ، بل كان سَوِيًّا لا نقصَ فيه- مِنَ الأدلَّةِ على قُدرةِ اللهِ الخارقةِ للعوائِدِ! وهو مع هذا ممنوعٌ مِن الكلامِ الذي يتعلَّقُ بالآدميِّينَ وخطابِهم، وأمَّا التَّسبيحُ والتَّهليلُ والذِّكرُ ونحوُه فغيرُ ممنوعٍ منه!).

كما قال تعالى: (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) [آل عمران: 41].

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ﴿11﴾

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ) أي: فخرج زكريَّا على قَومِه بني إسرائيلَ مِن مُصَلَّاه الذي بُشِّرَ فيه بالوَلَدِ. موسوعة التفسير

قال تعالى: (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) [آل عمران: 39].

(فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) أي: فأشار إلى قَومِه أن سبِّحوا في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه. موسوعة التفسير

قال ابنُ جرير: (وقد يجوزُ في هذا الموضِعِ أن يكونَ عنى به التسبيحَ الذي هو ذِكرُ الله، فيكونَ أمَرَهم بالفراغِ لذِكرِ الله في طَرَفَي النَّهارِ بالتَّسبيح، ويجوزُ أن يكونَ عنى به الصَّلاةَ، فيكونَ أمَرَهم بالصَّلاةِ في هذين الوقتَينِ). ((تفسير ابن جرير)) (473/15).

قال ابن عاشور: وإنَّما أمَرَهم زكريا عليه السلامُ بالتَّسبيحِ؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّه لما لم يُكلِّمْهم قد نذَرَ صمْتًا، فيَقْتدوا به فيصْمُتوا، وكان الصَّمتُ من صُنوفِ العبادةِ في الأُممِ السَّالفةِ، فأومَأَ إليهم أنْ يشْرَعوا فيما اعتادوهُ من التَّسبيحِ، أو أراد أنْ يُسبِّحوا اللهَ تَسبيحَ شُكْرٍ على أنْ وهَبَ نَبِيَّهم ابنًا يرِثُ علْمَه.

قال ابن رجب: يُستحَبُّ الذِّكرُ بعدَ الصَّلاتَينِ اللَّتَينِ لا تطَوُّعَ بعدَهما، وهما: الفَجرُ والعَصرُ، فيُشرَعُ الذِّكرُ بعد صلاةِ الفَجرِ إلى أن تَطلُعَ الشَّمسُ، وبعد العَصرِ حتى تَغرُبَ الشَّمسُ، وهذان الوقتان -أعني وقتَ الفَجرِ ووقتَ العَصرِ- هما أفضَلُ أوقاتِ النَّهارِ للذِّكرِ؛ ولهذا أمرَ الله تعالى بذِكرِه فيهما في مواضِعَ مِن القرآنِ، كقَولِه تعالى: (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)، وقَولِه: (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) [الأحزاب: 42]، وقَولِه: (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) [الإنسان: 25]....

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ﴿12﴾

أوجَد الله تعالى هذا الغلامَ المبشَّرَ به، وهو يحيى عليه السلامُ، وبيَّن سبحانَه ما أمَره به، وما منَحه مِن صفاتٍ فاضلةٍ، فقال تعالى: يا يحيى، خُذِ التَّوراةَ بجِدٍّ واجتِهادٍ؛ بحِفظِ ألفاظِها، وفَهمِ مَعانيها، والعَمَلِ بها، والدعوةِ لاتِّباعِها. الدرر السنية

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) أي: فوُلِد لزكريَّا يحيى، وقال اللهُ له: يا يحيى، خُذِ التَّوراةَ بجِدٍّ واجتهادٍ وعَزمٍ؛ فَهمًا لمعانيها، وعَمَلًا بما فيها، وحَملًا للنَّاسِ على اتِّباعِها. موسوعة التفسير

(وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) أي: وأعطَينا يحيى الفَهمَ لكِتابِ اللهِ، والعِلمَ بأحكامِه، والعَمَلَ به، والحُكمَ به في حالِ صِغَرِه وصِباه قبلَ بُلوغِه. موسوعة التفسير

﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿13﴾

(وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا) أي: وأعْطَيْنا يحيى رَحمةً مِن عِندِنا. موسوعة التفسير

(وَحَنَانًا) أي: رَحمةً ومحبَّة، وأصلُ (حنن): يَدلُّ على الإشفاقِ والرِّقَّةِ.

⇦وتنوينُ (حَنَانًا) وتنكيرُه؛ للتفخيم، وآتيناه رحمةً عظيمةً. الدرر السنية

(وَزَكَاةً) أي: وطهارةً مِن الذُّنوبِ والآفاتِ، ونقاءً مِن الخبائِثِ. موسوعة التفسير

(وَكَانَ تَقِيًّا) أي: وكان مُمتَثِلًا لأوامِرِ رَبِّه، مُجتَنِبًا لنواهيه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) [آل عمران: 39].

ويكون يحيى سيدًا في قومه، له المكانة والمنزلة العالية، وحصورًا لا يأتي الذنوب والشهوات الضارة، ويكون نبيّاً من الصالحين الذين بلغوا في الصَّلاح ذروته. التفسير الميسر

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ﴿14﴾

(وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ) أي: وكان مُسارِعًا في طاعةِ والِدَيه، كثيرَ الإكرامِ والإحسانِ إليهما قَولًا وفِعلًا. موسوعة التفسير

(وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) أي: ولم يكُنْ مُتكَبِّرًا عن عبادةِ اللهِ، ولا مُترفِّعًا على أبويه وغيرِهما مِن النَّاسِ، ولا مُستَخِفًّا بحقوقِ العبادِ، بل كان مُتواضِعًا مُتذلِّلًا، طائعًا لا يعصي ربَّه ولا والِدَيه، ولا يَظلِمُ عِبادَ اللهِ. موسوعة التفسير

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿15﴾

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ) أي: وتحيَّةٌ مِن اللهِ ليحيى يومَ وُلِد، وأمانٌ وسَلامةٌ له من الشَّيطانِ، ومِن كُلِّ ما يكرَهُ. موسوعة التفسير

(وَيَوْمَ يَمُوتُ) أي: وتحيةٌ مِنَ اللهِ على يحيى يومَ يموتُ، وأمانٌ وسَلامةٌ له مِن كُرَبِ الموتِ، وعذابِ القَبرِ وفِتنَتِه. موسوعة التفسير

(وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) أي: وتحيَّةٌ مِنَ اللهِ ليحيى، وأمانٌ وسلامةٌ له حين نبعَثُه حيًّا يومَ القيامةِ، فيأمَنُ مِن الفَزعِ والأهوالِ وعذابِ النَّارِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: لم يكُنْ مُتجَبِّرًا مُتكَبِّرًا عن عبادةِ اللهِ، ولا مُترفِّعًا على عبادِ الله، ولا على والِدَيه، بل كان مُتواضِعًا، مُتذَلِّلًا مُطيعًا، أوَّابًا لله على الدَّوامِ؛ فجمَع بينَ القيامِ بحَقِّ اللهِ، وحَقِّ خَلْقِه؛ ولهذا حصَلَت له السَّلامةُ مِنَ اللهِ في جميعِ أحواله؛ مَبادِئِها وعواقِبِها؛ فلذا قال: وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا، وذلك يقتضي سلامَتَه من الشَّيطانِ والشَّرِّ والعِقابِ في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ وما بينَها، وأنَّه سالمٌ مِن النَّارِ والأهوالِ، وأنَّه مِن أهلِ دارِ السَّلامِ.

إنْ قيلَ: ما الحِكمةُ في تقييدِ السَّلامِ في قِصَّةِ يحيى عليه السَّلامُ بهذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ، وكذلك المسيحُ في قَولِه: (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) [مريم: 33]؟

قال ابن القيم: فالجوابُ: أنَّ سِرَّه -والله أعلمُ- أنَّ طَلَبَ السَّلامةِ يتأكَّدُ في المواضِعِ التي هي مَظانُّ العَطَبِ ومواطِنُ الوَحشةِ، وكلَّما كان الموضِعُ مَظِنَّةَ ذلك تأكَّد طَلَبُ السَّلامةِ، وتعلَّقَت بها الهِمَّةُ، فذُكِرَت هذه المواطِنُ الثَّلاثةُ؛ لأنَّ السَّلامةَ فيها آكَدُ، وطَلَبَها أهمُّ، والنَّفسَ عليها أحرَصُ؛ لأنَّ العبدَ فيها قد انتقلَ مِن دارٍ كان مُستقِرًّا فيها مُوطِّنَ النَّفسِ على صُحبتِها وسُكناها، إلى دارٍ هو فيها مُعَرَّضٌ للآفاتِ والمِحَنِ والبلاءِ، فإنَّ الجنينَ مِن حينِ خَرَج إلى هذه الدَّارِ انتصَبَ لبلائِها وشَدائِدِها، ولأْوائِها ومِحَنِها وأفكارِها؛ ولهذا مِن حينِ خَرَج ابتدرَتْه طَعنةُ الشَّيطانِ في خاصرتِه، فبكى لذلك، ولِمَا حصلَ له من الوَحشةِ بفِراقِ وَطَنِه الأوَّلِ؛ فكان طَلَبُ السَّلامةِ في هذه المواطِنِ مِن آكَدِ الأمورِ.

الموطنُ الثَّاني: خروجُه مِن هذه الدَّارِ إلى دارِ البَرزخِ عندَ الموتِ، ونِسبةُ الدُّنيا إلى تلك الدَّارِ كنِسبةِ دارِه في بطنِ أمِّه إلى الدُّنيا تقريبًا وتمثيلًا، وإلَّا فالأمرُ أعظَمُ مِن ذلك وأكبَرُ، وطلَبُ السَّلامةِ أيضًا عند انتقالِه إلى تلك الدَّارِ مِن أهَمِّ الأمورِ.

الموطنُ الثالث: مَوطِنُ يومِ القيامةِ، يومَ يَبعَثُ الله تعالى الأحياءَ، ولا نِسبةَ لِما قَبلَه مِن الدُّورِ إليه، وطلَبُ السَّلامةِ فيه آكَدُ مِن جميعِ ما قَبلَه؛ فإنَّ عَطَبَه لا يُستدرَكُ، وعَثْرَتَه لا تُقالُ، وسَقَمَه لا يُداوَى، وفَقْرَه لا يُسَدُّ.

قال ابن القيم: فتأمَّلْ كيف خَصَّ هذه المواطِنَ بالسَّلامِ؛ لشِدَّةِ الحاجةِ إلى السلامةِ فيها، وتأمَّلْ ما في السَّلامِ مع الزيادةِ على السَّلامةِ مِن الأُنسِ، وذَهابِ الوَحشةِ، ثمَّ أنزِلْ ذلك على الوَحشةِ الحاصلةِ للعَبدِ في هذه المواطِنِ الثلاثةِ؛ عند خُروجِه إلى عالمِ الابتلاءِ، وعند مُعاينتِه هَولَ المطلَعِ إذا قَدِمَ على اللهِ وحيدًا مجرَّدًا عن كلِّ مُؤنِسٍ إلَّا ما قدَّمه من صالحِ عَمَلٍ، وعند موافاتِه القيامةَ مع الجَمعِ الأعظَمِ؛ ليصيرَ إلى إحدى الدارَينِ التي خُلِقَ لها، واستُعمِلَ بعَمَلِ أهلِها؛ فأيُّ موطنٍ أحَقُّ بطلَبِ السَّلامةِ مِن هذه المواطِنِ. ((بدائع الفوائد)). التي يكونُ الإنسانُ فيها في غايةِ الضَّعفِ والحاجةِ، وقِلَّةِ الحِيلةِ والفَقرِ إلى اللهِ، وعَظيمِ الهَولِ.

قال الطبري: عن ابنِ عُيَينةَ قال: (أوحَشُ ما يكونُ الخَلقُ في ثلاثةِ مَواطِنَ: يومَ يُولَدُ فيرى نفسَه خارجًا مِمَّا كان فيه، ويومَ يموتُ فيرى قَومًا لم يكُنْ عايَنَهم، ويومَ يُبعَثُ فيرى نفسَه في محشَرٍ عظيمٍ. قال: فأكرَمَ اللهُ فيها يحيى بنَ زكريَّا، فخصَّه بالسَّلامِ عليه؛ فقال: (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا).